

الحظ المعاكس

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني



الدين يعتقدون أنهم مضطهدون في الحياة وأن كل من في الدنيا وما فيها من ناس وأشياء يناوئهم ويكيد لهم ويناصبهم معذورون، وإن كان الأطباء يقولون إن هذا مرض؛ فقد تتوالى المصادفة على وتيرة واحدة لا تختلف أو تتنوع حتى يكبر في وهم المرء أن هناك عمداً، فيروح يندب ابن الرومي الذي حكوا أنه كان إذا رأى النوى مبعثراً أمام باب البيت يرد داخلًا ويقعد عن التصرف في يومه ذاك إيثاراً لطلب السلامة مما يتوهم أنه لا حالة ملاقيه من السوء والشر

حدث يوماً أني بكرت في القيام من النوم ليتيسر لي أن أكتب ما ينبغي أن أكتبه في ذلك اليوم، ثم أخرج لقضاء عدة حاجات لا سبيل إلى إرجاء واحدة منها. فأما الكتابة فاستحالت لأن الآلة الكتابية تعطلت لمة لم أستطع أن أهتدي إليها، ولأنني لم أجد في البيت كله لا حبراً ولا قلمًا ولا شيئاً مما يستطيع المرء أن يكتب به، فابتسمت - فابقيت لي حيلة - وقلت: «صدق المثل... باب النجار مخلع» وحدثت نفسي أن هذا يفسح الوقت لقضاء الحاجات الأخرى، فارتديت ثيابي وخرجت من الشقة متوكلاً على الله، فلم أكد أضع رجلي على الدرج حتى زلت قدمي، فهضمت متوجعاً على يدي ورجلي فقد هاضني الاصطدام بالدرجات وحدثت نفسي أن ساقى على الأقل لا ينقصها هذا الرض الجديد، ثم نقضت التراب عن ثيابي - بحكم العادة فإن السلم نظيف - ومضيت متحاملًا على نفسي إلى «الجراج» ولكن السيارة أثبت كل الإباء أن يدور محركها. واستحدث عهد بالسيارات ولا أعرفني عجزت عن علاج حرائرها إذا كان لأسباب عارضة، ولكن الأمر استعصى علي في ذلك الصباح حتى كدت أجن، فتركها واستأجرت سيارة وفي ظني أنها أسرع من الترام وما إليه، فلم نكد نقطع كيلو واحداً من الطريق حتى عرض للسائق راكب دراجة خرج فجأة من زقاق، فأراد السائق أن يتقن أن يدوسه ويذهن روحه فاصطدم بحافة

الرصيف وكاد يقتلني أنا أو يحطمني على الأقل. فنقدت الرجل ما استحق من الأجر وقلت: الترام أسلم وكننا عند محطته، فوقفنا ثلث ساعة أنظره وهو لا يجي، لسبب لا أدريه؛ وأنا أحتفل الشيء مهما طال، ولكنني لا أحتفل الوقوف خمس دقائق، فأحسست أن بدني قد تضعض وأن ساقِي أصبحتا لا تقويان على حملي، وإن كنت دقيقاً خفيفاً - وزناً لا دماً - ورأيت مركبة خيل مقبلة فأسرعت إليها وركبتها، والفارسي أعرف بمركبات الخيل، وأكبر الظن أنه رأى كيف ينالم الجواد وهو يوهك أنه يجز المركبة... ما علينا... سرنا دقائق بسرعة كيلو وربيع في الساعة وإذا بالتزام الذي نقد صبري وتهدم جسدي وأنا أنظره يدركنا ويمر بنا كالبرق الخاطف ويتركني أتخسر على العجلة التي صدق من قال إنها من الشيطان لعنه الله. وأوجز فأقول إن كل باب طرقة في ذلك اليوم الأسود ألفتته مسدوداً، وإن كل رجل أردت أن ألقاه وجدته مسافراً أو مريضاً، فأقصرت خوفاً على الباقيين الذين كنت أريد أن أقابلهم أن يدركهم الموت. ولا شك أن ابن الرومي كثرت تجربته لأمثال هذه المصادفات فصار يؤثر اختصار الأمر والتكوص من البداية اتقاء لمعاناة الخيبة التي مل تكررها ولم يكن يجد فيها لذة وله العذر

وأذكر أنه كان معنا في المدرسة الابتدائية تلميذ مجتهد وذكي بارع، وكان حريصاً بالنجاح والسبق في أي امتحان، ولم يكن لأحد منا أمل في مزاحته، ولكنه كان قبل كل امتحان يصاب بمرض يقعده عن أداء الامتحان. وكنا نحن على تقيضه لا نصاب بمرض حتى ولا بزكام خفيف، وكان يتفق أن يندبنا المدرس أنه مختبرنا غداً مثلاً في الجغرافيا فتبسط قلوبنا إلى أخذتنا، فقد كانت الجغرافيا أثقل ما تتلقاه من المعارف والعلوم في المدارس الابتدائية لأنها كانت عبارة عن أسماء خلجان وأهبار وجبال ورووس وبلدان ليس إلا؛ وكان حفظ هذه الأسماء التي لا آخر لها يسود نور الضحى في عيوننا، ولا أعلم ماذا كان يفعل سواي، ولكنني أعرف أني كنت أنشد المرض بكل وسيلة أعرفها فأروح أقف ساعة وساعتين في تيارات الهواء، وأصب الماء البارد على رأسي في الشتاء وأتركة مبلولاً للهواء وفي مرجوى أن أزم أو أحم فلا يحدث من ذلك شيء، وأصطر إلى الذهاب إلى المدرسة فإني بأس يصلح أن يكون مسوغاً للتخلف وأعاني

الاختبار الذى أُنذرنابه، وألقى جزء المعجز عن الحفظ، وتحضى الأيام وأنا صحيح معافى، وإذا بأحد المدرسين يشرنا أنه سيذهب بنا إلى حديقة الحيوانات فى يوم كذا فنفرح ونعد طعامنا ونغنى النفس يوم جميل نلعب فيه وننط ونمتع المين بمنظر الفروود والقليل ذى الخرطوم — أبو زلومة كما نسميه — والأسود . ويصبح الصباح الذى أحلم به فألم بأن أرفع رأسى عن الوسادة فإذا به أتقل من حجز الطاحون، فأستغرب وأتحسسه فلا أجده مشدوداً إلى شيء، فأسأل أى فتقبل على ونجسنى ثم تقول: « أنت سخن.. لا بد من شربة حالاً » فأصيح: « ولكن كيف أذهب إلى جنيئة الحيوانات إذا شربت شربة؟ » فتقول: « جنيئة الحيوانات؟ أنت مجنون؟ نعم نعم ... لا جنيئة الحيوانات ولا غيرها ... » فأتحسر وأقول لنفسى: « بقى يارب تشفىنى يوم امتحان الجغرافيا وتغضىنى يوم جنيئة الحيوانات؟ الأمر الله » وأرقد ونجىء الشربة فأجبرعها بكرهى، وبعد ساعتين اثنتين تهبط درجة الحرارة إلى الحد الطبيعى

ومن غرائب الدنيا أن فيها متزوجين يسخطون على نسايمهم ولا يريدونهن — ولا يدرى أحد لماذا تزوجهن إذن — ورجالا يطلبون الزواج ولا يجدون النساء المواقات، وفقراء لا يكادون يجدون الكفاف ولهم من البنين تسعة أو عشرة أحماء يأكلون الزلط كالنعام؟ وأعنياء يسر الله لهم الرزق وأدر عليهم أخلاف الثروة يشعئ الواحد منهم أن تكون له طفلة واحدة ولو كانت عوراء أو كسيحة . وترى بنات دميات ثقيات الدم والروح يتراحم الشبان عليهن ويطرحون أنفسهم تحت أقدامهن وهن لا يردنهم ولا يشجنهم ويرفضن أن يكن زوجات لهم وإن كانوا صالحين وأحوالهم حسنة وسيرهم مرضية . وترى بنات جميلات رشقات ممشوقات يفتن العابد بالحسن والظرف وحلاوة الطبع وطيب الحديث وبراعة الدكاء، ولكنهن مسكينات لا يرعب فيهن أحد ولا يبالين مخلوق ولا يحلم بوجودهن لا شاب ولا كهل . قالت لى مرة واحدة من هؤلاء الجميلات المسكينات — أعنى النبوذات — إن أغلب ظنها أن العنس هو كل حظها من الدنيا . فتألت وقلت لها: « يا شيخه حرام عليك ... أهذا كلام تقوله شابة فى العشرين من عمرها؟ » قالت: « هذا اعتقادى ... وأى شيء هناك ينرى بالأمل؟ .. إن الناس يطلبون المال » قلت:

« مالك جمالك وعقلك وحسن تديرك وأخلاقك الطيبة » قالت: « أشكرك ولكنك لن تستطيع أن تحيى أملاً مات ... إلى أدرى منك ... » فتذكرت فتاة هى مثال مجسد للدماة وثقل الدم وقلة العقل فقلت: « إذا كانت فتاة قد وفقها الله إلى زوج صالح كريم ... » فقاطعتنى وقالت: « هذا هو الذى يحدث دائماً ... أليس حظ فتاة هذه مدهشاً؟ من كان يتصور؟ أألم لا اعتراض ... » قلت: « إنك ما زلت صغيرة فاصبرى » قالت: « بالطبع ... ثم إنه لا حيلة لى إلا الصبر ولكنه لا يسعنى إلا أن أرى وأتعجب ... هل تعرف إن كل من زارتنا خاطبة — وإن كانت لم تصرح بيوعات الزارة — ذهبت ولم تعد؟ ... وليس هذا فقط بل بمننا من مارقنا أن هؤلاء الزائرات الخاطبات عجنني بكيت وكيت (وذكرت لى عيوباً ليس فيها شيء منها) وإن كل حديث جرى مع أبى فى أمر زواجى انتهى بالإقطاع بلا سبب نعرفه » فلم يسعنى إلا أن أرني لها: فليس كل ما تمانيه إبطاء الحظ عليها بل شر من ذلك الإيلام الذى تحمده صدمة الخيبة كلما نشأ الأمل . وقد كان من أثر ذلك أنها صارت تخرج إلى التردد أحياناً على المجتمع وعلى حالته وما يكون بين الناس فيه؛ فلو أن لها من عقلها وحسن تربيتها وازعاً قوياً ...

وقالت لى مرة وأنا ماض بها إلى بيت خالة لها: « شف ... أنا لا أخرج قط إلا مع أبى أو أخى أو معك أحياناً .. ولكنى واثقة أن الناس يعرفون وجهى ولا يعرفون صلتك بنا سيرونى اليوم وواثقة أيضاً أنهم سيمتقدون أنك ... أنك ... غريب ... وأنى خارجة معك للزفة أو ... وأنى بالاختصار بنت فاسدة الأخلاق ... وواثقة فوق هذا أنهم سيمنون بأن يذبحوا هذا عنى كأن لهم ثأراً عندى ... فما رأيك؟ »

فقلت لأخفف عنها: « المصيبة واحدة ... أنا أيضاً رجل تقى ورع أخاب الله وأتقىه لى زوجة وأولاد؛ وأنا واثق أن ناساً يعرفوننى ولا يعرفونك سيرونا فيقول كل منهم فى سره أولصاحبه: شف ... شف ... أما إن معه لبنناً!!! يا ابن الـ ... » فضحكت فقالت: « هذا أحسن ... ليس فى وسعنا أن نصلح السكون إذا صح أن به حاجة إلى الإصلاح، ولكن فى وسعنا دائماً أن نتلقى ما نجىء به الحياة بابتسامة حلوة كابتسامتك وإن لم برزق كل إنسان مثل هذا الفهم الجميل » وهكذا الدنيا دائماً ... إبراهيم عبر القادر المازنى